

## حَسَنَاتُ الْإِبْتِلَاءِ وَإِجَابَاتُهُ



يقول تعالى: (أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكَوْا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ \* وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَلَا يَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَالَّذِينَ كَانُوا يُكَاذِبِينَ) (العنكبوت/ 2-3). وفي الخبر عن رسول الله (ص): «لولا ثلاث في ابن آدم ما طأطأ رأسه شيء: (المرض) و(الموت) و(الفقر) وكلّهم فيه، وإنّه لمعهم لوثّاب»، أي مع كثرة طالبيه الأشدّاء، إلا أنّّه مغرورٌ بنفسه، مُعجبٌ بقوّته.

وعلى ذلك يمكننا أن نرصد أهمّية الابتلاء في حياتنا ضمن النقاط الآتية:

1- كسر رتابة الحياة، إذ لو صيغت الحياة على نمط واحد لسأم الإنسان من روتينها المُمل، والابتلاءاتُ خيرٌ مَنْ يُجدّد شبابَ الحياة، لأنّها ترسم وتُلوّن الوجه الآخر للحياة، فلا يُقدّر النعمةَ حقّاً قدرها مَنْ يعيش النعيم الدائم، وإنّما تحلو الحياة لا بحلاواتها فقط، بل بمراراتها أيضاً، وبنجاحاتها وفشلها، وانتصاراتها وهزائمها، ولو كانت خلواً من الابتلاء لم تكن هذه هي الحياة التي نعرفها.

طُبعت على كدرٍ وأنتَ تُريدها

صفواً من الأقدارِ والأكدارِ

ومُكلِّفُ الأيِّامِ ضدَّ طباعِها

مُتطلِّبٌ في الماءِ جذوةَ نارٍ!

2- إتاحة الفرصة للتمييز والغريبة بين الهمم العالية والأخرى الواطئة، وبين أنصار الحقِّ من أنصار الباطل، والمعادن النفيسة من المعادن الخسيسة.. وكما أنَّ الذَّهَبَ يُختبر بالنار ليصفو من شوائبه، فإنَّ ذَهَبَ الإنسان لا يتجلَّى نقياً صافياً إلا في أوقات الشدَّة، وأيَّام المحنة، التي من لطفها أنَّها تفرز الدخيل من الأصيل، والحقيقي من المزيفِ ف.

3- لو لم يكن هناك شدائد وابتلاءات، لطلال أمد التميُّع والنعومة والترف والبطر في حياة الإنسان، ولما كان مستعداً لمواجهة المصاعب والتحدِّيات، بل لقسى قلبه وتبلَّدت مشاعره، ذلك أنَّ زمان الابتلاء بالوباء أم غير الوباء، يجعل الإنسان أكثر رهافة وإنسانية وأخلاقية في التعاطي مع أخيه الإنسان، ولكلِّ قاعدة بالطبع استثناءات. ولهذا يُحدِّثنا القرآن عن حالات التطرُّف الإنساني، بقوله: (كَلاَّ إِنَّ سَـالِئِنا لَنُؤَسِّسُنا لَنَـيِّطِـغِـي \* أَنا نَـرَآهُ اسْتَغْناي) (العلق/ 6)، وقوله: (فَطالَ عَلايَهِمُ الأَمدُ فَقسَّتْ قُلُوبُهُمُ) (الحديد/ 16).

4- البلايا مُقرِّبات إلى ساحة □ تعالى بعد هجرانها والابتعاد عنها والانغماس في اللهوات والشهوات، وخيرٌ دليل على ذلك ما نحنُ فيه اليوم من عودة إلى ظلال الرحمة نتيقيُّها، وإلى التعلُّق بأسباب القوَّة المطلقة ننشدُ إليها، بعد أن تأكَّد لنا أنَّ لا قوَّةَ إلا بالله، ولا ثقةَ إلا به، وأنَّه مالك الشفاء حينما يعزُّ الشفاء، وأنَّه المنجي حيث لا نجاةَ إلا به، لا في عهد كورونا وحسب، بل في كلِّ ضائقة تحدق بالإنسان، في البرِّ كان، أم في البحر، أم في الجو. قال تعالى: (فَأَخَذناهُمُ بِأليِّأُساءِ وَالصُّرِّاءِ لَعَلَّاهُمْ يَتَضَرَّعونَ) (الأنعام/ 42).

5- لولا الابتلاءات لزهَّد الإنسان بدار النعيم الأبدية، ولرُكن إلى دُنياه بكلِّ ما فيها من عيوب ومنغِّصات ونقائص.. أمَّا إذا كان يعلم أنَّ الدُّنيا دار ممر لا دار مقر، وأنَّه سينتقل من دار خَربة إلى دار عامرة، وأنَّه سينجو من كلِّ الآفات والمكدِّرات والهموم والغموم التي تضجُّ بها

الدُّنيا، فإنَّه يُرَدُّ بِبِالْبِتْلَاءِ مَاحِيًا لِسَيِّئَاتِهِ، رَافِعًا لِدَرَجَاتِهِ، مَنقِيًا لَهُ مِنَ الشَّوَابِ  
وَالرَّوَابِ الَّتِي عُلِقَتْ بِهِ فِي رِحْلَتِهِ الدُّنْيَوِيَّةِ، فَرَحًا بِانْتِقَالِهِ مِنْ دَارِ الشُّرُورِ إِلَى دَارِ السُّرُورِ.  
يَقُولُ جَلَّ جَلَالُهُ: (أَتَسْتَبِدُّ لُنُورِ الَّذِي هُوَ أَدْنَىٰ بِرَالَّذِي هُوَ خَيْرٌ) (البقرة/ 61).

6- الابتلاءات، على عكس ما يتصور بعضنا من أنَّها مُكَبِّلاتٌ أو مُثَبِّطاتٌ، هي من أنواع المُنَشِّطاتِ  
الَّتِي نَحْتَاجُهَا لِتَذْوِيبِ الدَّهُونِ النَّفْسِيَّةِ، وَالتَّرَهُّلِ الرُّوحِيِّ، وَالخَمُولِ العَقْلِيِّ، وَالكَسَلِ البَدَنِيِّ.. لَقَدْ لَاحَظَ  
دَارِسُو تَارِيخِ الحَضَارَاتِ أَنَّ الحُرُوبَ كَانَتْ أَسْبَابًا مَهْمَّةً لِلاخْتِرَاعَاتِ وَالاكْتِشَافَاتِ، الطَّبِيَّةِ وَالتَّقْنِيَّةِ  
وَالعِلْمِيَّةِ، وَأَنَّهَا وَإِنْ رَافَقَتْهَا خَسَائِرٌ بِالأُرُوحِ وَالمَمْتَلِكَاتِ؛ لَكِنَّهَا مُحَرِّكٌ مِنْ مُحَرِّكَاتِ الإِبْدَاعِ..  
وَفِي الإِجْمَالِ، فَإِنَّ الشَّجَرَةَ البَرِّيَّةَ - كَمَا وَرَدَ عَنِ الإِمَامِ عَلِيِّ (ع) -: «أَصْلُبُ عودًا، وَالرَّوَابِعُ الخَصْرَةَ  
أَرْقُ جُلُودًا، وَالنَّبَاتَاتُ العِذْيَةَ أَقْوَى وَقُودًا، وَأَبْطَأُ خُمُودًا».

يُقَالُ إِنَّ (الفواكه) تَتَبَاهَى عَلَى (السُّكَّرِ) فَائِلَةٌ؛ لَقَدْ تَجَرَّعْنَا كَثِيرًا مِنَ المَرَارَةِ حَتَّى وَصَلْنَا  
إِلَى مَنزِلَةِ الحَلَاوَةِ، فَمَاذَا تَعْرِفُ أَنْتَ عَنِ لَذَّةِ الحَلَاوَةِ وَلَمْ تَعَانَ مَشَقَّةَ المَرَارَةِ فَط؟!

إِنَّ الأُمَّمَ الَّتِي لَا تَتَنَكَّرُ وَلَا تُهْزَمُ بِسَهُولَةٍ، هِيَ تَلِكُ الَّتِي عَاشَتْ المَعَانَاةَ وَالمَصَاعِبَ فِي طَرِيقِ نَهْضَتِهَا،  
وَعَيَّدَتْ طَرِيقَهَا الوَعْرَ بِالأَلَامِ وَالمَصَاعِبِ وَالدَّمُوعِ وَالدَّمَاءِ، وَعَلَى عَكْسِهَا الأُمَّمُ الَّتِي اسْتَعْرَقَتْ فِي  
المَيُوعَةِ وَالتَّرَفِ وَالمَيُونَةِ وَالبَذْخِ وَالبَطْرِ.

7- وَلِأَنَّ الحَسَّ الإِنْسَانِيَّ، كَالْمَعْدَنِ يَحْتَاجُ إِلَى صَقْلٍ بَيْنَ حِينٍ وَآخَرَ، وَإِلَّا رَانَ عَلَيْهِ الصَّدَأُ، وَتَبَلَّدَ وَلَمْ  
يَعُدَّ يَعْشِشُ نَزْعَتَهُ الإِنْسَانِيَّةَ وَالوُجْدَانِيَّةَ فِي مَشَاظِرَةِ الآخِرِ هُمُومِهِ وَمَعَانَاتِهِ، كَذَا بِحَاجَةٍ دَائِمَةٍ إِلَى الإِنْسَانِ  
الغَيُورِ الَّذِي تَأْخُذُهُ الرِّافَةُ بِالآخِرِ، سِوَاءً أَكَانَ أَخًا لَهُ فِي الدِّينِ أَمْ نَظِيرًا لَهُ فِي الخَلْقِ.

وَفَتَرَاتِ المَحْنِ وَالاِبْتِلَاءَاتِ تَتَحَوَّلُ - فِي الغَالِبِ - إِلَى وَرْشَاتِ نَشْطَةٍ لِبِنَاءِ وَصِنَاعَةِ الإِنْسَانِ الخَشِنِ القَادِرِ  
عَلَى مَوَاجَهَةِ التَّحَدِّيَّاتِ، وَإِعَادَةِ تَدْوِيرِ الإِنْسَانِ الخَامِلِ الهَزِيلِ، وَلِتَرْكِيبِهِ مِنْ جَدِيدٍ بِحَيْثُ يَكُونُ مُؤَهَّلًا  
لِإِحْدَاثِ نَهْضَةٍ حَضَارِيَّةٍ جَدِيدَةٍ.

يَقُولُ (جَلالُ الدِّينِ الرُّومِيُّ) فِي (كِتَابُ فِيهِ مَا فِيهِ): «مَا لَمْ يُظْهِرِ الأَلَمُ دَاخِلَ الإِنْسَانِ (الشَّغْفَرَ)  
(وَالعَشْقَ) لَنْ يَقْضِيَ إِلَيْهِمَا، وَلَوْ لَمْ تَظْهِرِ آلامُ الوَضْعِ لِمَرْيَمَ (مَرْيَمَ) لَمَا قَصَدَتْ الشَّجَرَةَ المَبَارَكَةَ  
(فَأَجَاءَ هَا المَخَاضُ إِلَيَّ جِدْعَ النِّخْلَةِ) (مَرْيَمَ/ 23).. فَالْجَأُهَا الأَلَمُ إِلَيْهِ، كَانَتْ  
الشَّجَرَةُ جَافَّةً فَغَدَّتْ مَثْمَرَةً.. الجِسْمُ مِثْلُ مَرْيَمَ، وَكُلُّ مِثْلًا لَدَيْهِ (عَيْسَى) فِي دَاخِلِهِ، فَإِذَا حَدَثَ لَنَا

الألمُ وُلِدَ (عيسانا)!!

الروحُ في الداخل في فاقة، والجسدُ في الخارج في ثراء، والآن فتداو، فإنَّ مسيحتك على الأرض، إذ  
عندما يعود سيتبدد كلُّ أمل بعلاجك!!

إنَّ خلاصة ما يمكن قوله بشأن الشرور في الحياة، أنَّ إرادة الشرِّ تكون قبيحة إذا أُريد الشرُّ  
لذاته.. أمّا إذا أُريد لخير فلا يكون قبيحاً (وَلَا تَكُفُّمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةً) (البقرة/ 179)..  
فالقصاص يمكن أن يُقال بأزّه شرّاً لأزّه هدمٌ لبنيان الله؛ ولكنّه شرٌّ جزئيٌّ، وصيانة الناس عن  
القتل خيرٌ كليٌّ، فإرادة الشرِّ الجزئي طلباً للخير الكلي ليست قبيحة! هذا زبدة ما يراه  
العُرفاء!